جامعة بجاية: قسم اللّغة والأدب العربي **المقياس: نص أدبي قديم(نثر)**

السنة الأولى ليسانس/ مج4. **الأستاذة: د. ريلي**

المحاضرة 1:النثر العربي القديم تاريخيا وجغرافيا

تقديم: قسّم العرب الأدب إلى نوعين: نوع منظوم بوزن وإيقاع وقافية؛ أسمتْهُ شعرا، ونوع منثور لا وزن له ولا قافية، أسمته نثرا، وما يهمنا في محاضرتنا هاته هو النثر الذّي دُون البعض منه في الجاهلية دون الآخر، وقد اتسمت نشأته بالغموض واضطراب، وكان حظّه من الحفظ والتدوين أقل من حفظ الشعر.

1. تعريف النثر:

عرّفه صاحب اللّسان بقوله:«النثر نثْرُك الشيء بيدك ترمي به مفرقا مثل نثر الجَوز واللّوز والسّكر، وكذلك نثر الحبّ إذا بُذر هو النّثار، وقد نَثَرَهُ يَنْثُرُهُ ويَنْثِرُهُ نَثْرًا ونِثارا ونثَّرَهُ فانْتَثَر وتَنَاثَر، والنَّثارةُ ما تناثر منه»[1] أي رمى الشّيء وألقاه على نحو مُتفرّق ومُبعثَر، ونَثَر الكلام: أي أرسله بلا وزن وقافية، أو الكلام المقفى بالأسجاع.

أمّا النّثر اصطلاحاً فهو الكلام المُرسل الذّي لا يتقيد بوزنٍ وقافية، وهو أنواع ثلاثة:

أ. **النثر العادي: و**هو الكلام العادي الذي يستخدمه الناس للتواصل فيما بينهم للتفاهم ولقضاء احتياجاتهم «وهو غير فاقد نهائيا لبعض عناصر النثر الفني»[2].

ب. **النثر العلمي:** وهو النثر الذّي يعبّر عن المفاهيم العلمية المختلفة دون عناية بالناحية الفنية.

جـ. **النثر الفني:** وهو الكلام الذّي يُنسج بأسلوب فنيّ أي يحتوي على حسن الصياغة وترتيب الأفكار والالتزام بالأساليب الفنية البليغة والجودة اللّغوية، وسعة الخيال، فهو«لغة العقل والتفكير، لا يظهر عند أمة من الأمم إلاّ متى بلغت تلك الأمة درجة عالية من المدنية والحضارة، بخلاف الشّعر، لغة العاطفة والخيال، فإنّه يرافق الإنسان منذ طفولته الاجتماعية»[3]، وقد لعب هذا النوع من النثر دورا مهما في حياة الإنسان العربي، ويؤكد الباحث شوقي ضيف ذلك في قوله:«كان عرب الجاهلية مشغوفين بالتاريخ والقصص عن فرسانهم ووقائعهم وملوكهم، يقطعون بذلك أوقات سمرهم في اللّيل وحَول خيامهم، وقد

دارت بينهم أطراف من أخبار الأمم المجاورة لهم ممتزجة بالخرافات والأساطير، ففي السيرة النبوية أنّ النّضر بن الحارث المكي كان يقص على قريش أحاديث عن أبطال الفرس أمثال رُسْتم وإِسْفِنديار وأكثر ما كان يستهويهم من القصص أحاديث قُصّاصهم عن أيامهم وحروبهم في الجاهلية»[4].

3. **مميزات النثر الفنيّ العربي وأنواعه:** يمتاز النثر بعدة خصائص نذكر منها ما يلي:

. السلامة اللّغوية.

. إستقامة المعنى.

. جودة التعبير.

. خال من الوزن والقافية.

ويمكن تقسيم النثر العربي القديم إلى الأنواع التالية: سجع الكهان، والخطابة، والأمثال والحكم، والوصايا، والقصص، والرسائل، والعهود والمحاورة، والمفاخرات والمنافرات.

4. **أهمية النثر:**

استطاع النثر أن يتناول العديد من الأغراض التي تشمل جوانب الحياة، ومشاكلها، ومظاهرها المُختلفة، بالإضافة إلى تناوله لمختلف العلوم العلميّة، والمعرفيّة.

4. **نشأة النثر الفني:**

يجد الباحث مشقة كبيرة حينما يحاول تحديد الفترة الزمنية التّى نشأ فيها النثر الفني في اللّغة العربية، وذلك لغموض نشأته واضطراب روايته، لذا لم يتمكن الباحثون على الرغم من جهودهم ودراساتهم المستفيضة في هذا المجال أن يصلوا إلى رأي موحد يمكن الاطمئنان إليه.

أما هذه الآثار النثرية المختلفة التي تنسب إلى الجاهليين، فيكاد مؤرخو الأدب يتفقون على عدم صحة شيء منها، والسبب في عدم الثقة بهذه النصوص راجع إلى الأسباب الاتية:

. قلة التدوين أو انعدامه في العصر الجاهلي.

. اعتمادهم قديما على حفظ الشعر واستظهاره بسبب الوزن، على خلاف النثر ممّا جعله عرضة للضياع واندثار.

5. **موقف الباحثين في وجود النثر عند العرب:**

يقف المرء حائرا بين الآراء الي تنكر وجود النثر الفني عند العرب والآراء التي تؤيد وجوده.

أ. **موقف أصحاب الاتجاه الأول:**

يـرى بعـض البـاحثين أن العـرب لـم يعرفـوا النثـر الفنّـي لأنّهـم عاشـوا حيـاة بدائيـة بسـيطة سـاذجة لا تسـمح لهـم بوجـود النثـر الـذّي هـو لغـة العقـل والفكـر، ولـيس بـين أيـدينا وثـائق تُثبـت وجـود الأدب النثـري فـي الجاهليـة، لأنّ الكثيـر منهـا موضـع شـك لتسـرب الانتحـال والوضـع إليهـا، والسـبب فـي ذلـك هـو اهمـال التقييـد والتـدوين الـذي تـأخر حتـى القـرن الثـاني للهجـرة، وهـذا الأمـر – بـلا شـك – يحـط مـن مصـداقية النصـوص التـي وصـلت إلينـا بعـد تلـك المرحلـة، ويمثّـل هـذا الاتّجـاه الـدكتور طـه حسـين الـذّي يوافـق المسـيو مرسـيه بعـدم وجـود الخطـب فـي العصـر الجـاهلي وينكـر بشـدّة أن يكـون هنـاك نثـر فنّـي فـي تلـك الفتـرة، ويـرى أنّـه ظهـر فـي العصـر العباسـي بفضـل التطور الحضاري الذّي عرفه المجتمع العربي.

ويـرى الـدكتور حسـين نصـار وبعـض النّقـاد أنّ النثـر الفنـي العربـي ظهـر فـي القـرن الثـاني الهجـري نتيجـة اسـقرار الدولـة العباسـية وتثبيـت أركانهـا، مسـتدلا علـى ذلـك بعبـد الحميـد بـن يحـي الكاتـب الـذي أنشـأ الكتابـة الفنيـة إنشـاءً فـي اللّغـة العربيـة، وبأسـتاذه أبـي العـلاء سـالم مـولى هشـام بن عبد الملك، وابن أستاذه عبد الله الذّي كتب إلى خالد بن عبد الله القسري[5].

ب. **موقف أصحاب الاتجاه الثاني:**

فقد أجمع علماء العرب وبعض المستشرقين على وجود النثر الفني منذ العصر الجاهليّ واختلفوا في مضامين ذلك النثر، حيث يذهب حنا الفاخوي في كتابه الجامع في تاريخ الأدب العربي«أنّ الجاهليين عرفوا النثر ودوَّنوا بعضه لنفس الأسباب التّي دعتهم لتدوين بعض الشعر، ولكن ذلك النثر كان حظّه أقل من حظّ الشعر لصعوبة روايته، ثمّ إنّه كان أكثر تعرّضا للتحريف والنحل بسبب صعوبة روايته وسهولة تحريفه والإضافة إليه، أمّا ما بقي لنا منه فبعض أسجاع الكهّان، وبعض الأمثال والحِكم، والخطب، والقصص»[6].

ويؤكد زكي مبارك على أنّه قد كان للعرب في الجاهلية نثر فني له خصائصه وقيمته الأدبية، وأنّ الجاهليين لابد وأن يكونوا قد بلغوا في ذلك المضمار شأوا بعيدا لا يقل عما وصل إليه الفرس واليونان في ذلك الوقت، بل إنّهم في إنتاجهم الأدبي في النثر لم يكونوا متأثرين تأثيرا كبيرا بدولة أخرى مجاورة، وإنّما كانت لهم في كثير من الأحيان أصالتهم وذاتيهم واستقلالهم الأدبي التّي تقتضيه بيئتهم المستقلة، وحياتهم

التّي كانت أقرب إلى الانعزال، وإذا كانت الظروف المختلفة لم تساعد على بقاء هذا التراث من النثر الجاهلي، فليس معنى ذلك أن نهدره ونحكم بعدم وجوده، وإنّما يجب أن نلتمسه من مصادر أُخر.

ويقول بروكلمان:«يمكن عد الأمثال من بقايا أقدم النثر العربي، لما يبدو أن بعضها كان سائرا مشهورا في الجاهلية، وكثيرا ما تشير هذه الأمثال إلى أحداث ووقائع معينة حصلت قديما، ولكنّها انطوت في زوايا النسيان»[7] ، ويقول: أخيرا يمكن القول بأنّ فن التأثير بالكلام المتخير، والحسن الصياغة والتأليف في أفكار النّاس وعزائمهم قد ازدهر عند عرب الجاهلية، وأنّ هذا الفن قد اشتمل أيضا على بذور النمو الأدبي المأخر[8].

كما يؤكد ريجيس بلاشير وجود نثر جاهلي في قوله:«والعربي بحكم يحب الكلام وسماع النطق الجيّد والبدو تبعا لنوع معيشتهم مدعوون إلى تنمية الميل للفصاحة، فإنّ اللّغة العربية أداة قوية وغنية بالأصوات التّي تدفع إلى التماس الأنغام الإيقاعية والجمل القصيرة أو على العكس إلى الإطناب الذّي يزيد حشو الكلام من قيمته، كما أنّ حياة الصحراء تساعد على نمو الموهبة الخطابية، والبدوي يعمل قليلا ويقضي أوقاته في أحاديث لا نهاية لها، أمّا تلك الأحاديث الّي تجري حول الموقد والتّي أطلق عليها القدماء اسم الأسمار فقد لعبت دورا شبيها بالدور الذّي لعبته مثيلاها في الغرب»[9].

نستنتج ممّا سبق أنّ العصر الجاهلي لم يعرف إلاّ القصص والأمثال والوصايا والخطب في حين تأخّر ظهور المقامات إلى العصر العباسي هذا تاريخيا.

أمّا جغرافيا فالبيئة التي احتضنت ميلاد الشعر العربي هي نفسها التي احتضنت النثر، وهي **شبه الجزيرة العربية** التي تقع في الجنوب الغربي من آسيا، وهي ليست جزيرة بالمعنى الدقيق للكلمة، لأنّ الماء لا يُحيط بها من الجهة الشمالية، وهي تُحَدُّ بالفرات وبادية الشام شمالا، والخليج العربي وعمان شرقا، والمحيط الهندي جنوبا، والبحر الأحمر غربا، وقد قسمها جغرافيو العرب إلى خمسة أقسام هي: الحجاز، تهامة، نجد، اليمامة، اليمن، وإلى جانب هذه الأقسام صحراء مترامية الأطراف تمتد من وسط الجزيرة، وهي مختلفة في طبيعتها، فهي حينا رمل لينة، وحينا أرض صلبة ذات أحجار سوداء كأنّها أُحرقت بالنّار.

وتمتاز جزيرة العرب بمناخ حار شديد القيظ الأمر الذّي تسبب في انتشار الجفاف في أرجائها، وتهطل الأمطار في فصلي الربيع والشتاء معلنا ظهور الكلأ التي تعيش عليه إبلهم.

تطبيق:

1. هل كان النثر الفنيّ في العصر الجاهلي موجودا أم لا، بين ذلك على ضوء مادرست ؟
2. من الأسبق بالظهور الشعر أو النثر؟ علل ذلك.